رسائل تلّغرافيّة
(٢٤)

آياتٌ تَحْتَاجُ إلى بَيَانٍ

«الآيةُ السادسة»

بلغه

الدكتور ابن الكيَّال

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للَّه وحده، والصلاة والسلام علىٰ من لا نبيّ بعده ﷺ، **أما بعد:**

فهذه بفضل اللَّه ومَنِّه والذي لا تتم الصالحات إلا به هي الآية السادسة في سلسلة: «**آيات تحتاج إلىٰ بيان**»، وفيها الآية السادسة، وهي قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٧، ١٠٨] فهما آيتان متصلتان، أما الأولىٰ ففي أهل النار، وأما الثانية ففي أهل الجنة، ولسياق الآيات لبيان المعنىٰ المراد فإنه لابد أن تُسْرد وتتلىٰ أربع آيات، حيث قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٥-١٠٨].

والإشكالية هنا في المعنىٰ المراد في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ لأهل النار، وكذلك أهل الجنة، فما معنىٰ الاستثناء هنا؟ فما الذي شاءه ربك لمن دخل النار، ولمن دخل الجنة في هذه المشيئة، مع قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ فإما خلود، وإما عدم الخلود؛ لأن الاستثناء بإلّا يمنع الخلود، فما المراد بالآية، ومن ثَم تكلم كذلك علىٰ معنىٰ الآيات الأربع تمهيدًا للمراد.

قال الإمام أبو عبد اللَّه القرطبيّ في «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٦٦-٧٢) مختصرًا:

«قوله: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ﴾ وقرئ ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ﴾ -كما في الآية هنا-؛ لأن الياء تحذف إذا كان قبلها كسرة، تقول: لا أدْرِ، ذكره القشيري، وروىٰ أن أُبيًّا وابن مسعود قرآ: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي﴾ بالياء في الوقف والوصل، . . . . قوله: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ الأصل: تتكلم؛ حُذِفت إحدىٰ التاءَين تخفيفًا، وفيه إضمار؛ أي لا تتكلم فيه نفس إلا بالمأذون فيه من حُسن الكلام؛ لأهم ملجئون إلىٰ ترك القبيح [يعني في قول يوم القيامة العظيم]، وقيل: المعنىٰ لا تكلم بحجة ولا شفاعة إلّا بإذنه، وقيل: إن لهم في الموقف -[أي: موقف يوم القيامة]- وقتًا يُمنعون فيه من الكلام إلا بإذنه.

[● شبهةٌ وردُّها:]

وهذه الآية أكثر ما يُسأل عنها أهل الإلحاد في الدين، فيقول: لم قال: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾، و﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦]، وقال في موضع من ذكر القيامة: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧]، وقال: ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾ [النحل: ١١١]، وقال: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، وقال: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنّٞ﴾ [الرحمن: ٣٩].

● والجواب ما ذكرناه، وأنهم لا ينطقون إلّا بحُجّة تجب لهم، وإنما يتكلمون بالإقرار بذنوبهم ولوم بعضهم بعضًا، وطرح بعضهم الذنوب علىٰ بعض، وأما التكلم والنطق بحجّة لهم فلا، وهذا كما تقول للذي يخاطبك كثيرًا، وخطابه فارغ عن الحجة: ما تكلمت بشيء، وما نطقت بشيء، فسُمّي من يتكلم بلا حجة فيه غير متكلم.

وقال قوم: ذلك اليوم طويل وله مواطن ومواقف، في بعضها يُمنعون من

الكلام، وفي بعضها يُطلق لهم الكلام؛ فهذا يدل علىٰ أنه لا تتكلم نفس إلا بإذنه.

قوله: ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ﴾ أي: من الأنفس أو من الناس، وقد ذكرهم في قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ [هود: ١٠٣].

والشقي الذي كُتبت عليه الشقاوة، والسعيد الذي كُتبت عليه السعادة، قال لبيد:

فمنهم سعيد آخذ بنصيبهِ ومنهم شقيٌّ بالمعيشة قانِع

قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ﴾ ... قيل: الزفير إخراج النفس، وهو أن يمتلئ الجوف غمًّا فيخرج النفس، والشهيق ردّ النفس، وقيل: ترديد النفس من شدّة الحزن، مأخوذ من الزَّفْر وهو الحَمْل علىٰ الظهر لشدّته، والشهيق النفس الطويل الممتد، مأخوذ من قوله: جبل شاهق؛ أي: طويل، والزفير والشهيق أصوات المحزونين.

قوله تعالىٰ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ في موضع نصب علىٰ الظرف، أي: دوام السموات والأرض، والتقدير وقت ذلك.

واختلفوا في تأويل هذا؛ فقالت طائفة منهم الضحَّاك: المعنىٰ ما دامت سموات الجنة والنار وأرضهما، والسماء كل ما علاك فأظلك، والأرض كل ما استقر عليه قدمك، وفي التنزيل: ﴿وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر: ٧٤].

وقيل: أراد به السماء والأرض المعهودتين في الدنيا؛ وأجرىٰ ذلك علىٰ عادة العرب في الإخبار عن دوام الشيء وتأبيده كقولهم: لا آتيك ما جنّ الليل: أو سال سَيْلٌ، وما اختلف الليل والنهار، وما ناح الحمام، وما دامت السموات والأرض، ، ونحو هذا مما يريدون به طولًا من غير نهاية، فأفهمهم اللَّه تخليد الكفرة بذلك،

وإن كان أخبر بزوال السموات والأرض.

وعن ابن عباس: أن جميع الأشياء مخلوقة أصلها من نور العرش، وأن السموات والأرض في الآخرة تُردَّان إلىٰ النور الذي أُخذتا منه، فهما دائمتان آبدًا في نور العرش». اهـ

وقال ابن كثير في «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٢٢٣)، بعد أن ذكر مثل ذلك للطبري في «تفسيره»:

«قلت: ويحتمل أن المراد بما دامت السموات والأرض: الجنس؛ لأنه لابُدّ في عالم الآخرة من سماوات وأرض، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]؛ ولهذا قال الحسن البصري في قوله: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ قال: لكلِّ جنة سماء وأرض.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما دامت الأرض أرضًا والسماء سماءً.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ كقوله: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

وقد اختلف المفسّرون في المراد من هذا الاستثناء علىٰ أقوال كثيرة، حكاها الشيخ أبو فرج ابن الجوزي في كتابه «زاد المسير»، وغيره من علماء التفسير، ونقل كثيرًا منها الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تفسيره»، واختار هو ما نقله عن خالد بن معدان، والضحّاك، وقتادة، وأبي سِنَان، ورواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن أيضًا: أنّ الاستثناء عائد علىٰ العصاة من أهل التوحيد ممن يخرجهم اللّه من النار بشفاعة الشافعين من الملائكة والنبيين والمؤمنين؛ حين يشفعون في أصحاب الكبائر، ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين، فتخرج من النار من لم يعمل خيرًا قط، وقال يومًا يومًا من الدَّهر: لا إله إلّا اللّه،

كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول اللَّه ﷺ بمضمون ذلك من حديث أنس، وجابر، وأبي سعيد، وأبي هريرة وغيرهم من الصحابة [رواه مسلم في «صحيحه» (٣٢٥/ ١٩٣)، والبخاري (٤٤) وحديث مسلم: «**من لم يعمل خيرًا قط**» (٣٠٢/ ١٨٣)]، ولا يبقىٰ بعد ذلك في النار إلّا من وَجَب عليه الخلود فيها، ولا محيد له عنها، وهذا الذي عليه كثير من العلماء قديمًا وحديثًا في تفسير هذه الآية الكريمة.

وقد روي في تفسيرها عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وابن عباس، وابن مسعود، وأبي هريرة، وعبد اللَّه بن عمرو، وجابر، وأبي سعيد من الصحابة.

وقال السُّدّيّ: هي منسوخة بقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾ [النساء: ٥٧].

قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ﴾ وهم أتباع الرسل ﴿فَفِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ أي: فمأواهم الجنة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين مُقيمين فيها أبدًا، ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ﴾، ومعنىٰ الاستثناء هنا: أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمرًا واجبًا بذاته، بل هو موكول إلىٰ مشيئة اللَّه تعالىٰ، فله المِنَّة دائمًا، ولهذا يُلهمون التسبيح والتحميد كما يُلهمون النفَس.

وقال الضحاك والحسن البصري: هي في حق عصاة الموحّدين الذين كانوا في النار، ثم أُخرجوا منها.

وعقب ذلك بقوله: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ أي: غير مقطوع، قاله ابن عباس، ومجاهد، وأبو العالية وغير واحد؛ لئلا يتوهم متوهّم بعد ذكره المشيئة أن ثَمَّ انقطاعًا، أو لبسًا، أو شيئًا، بل ختم له بالدوام وعدم الانقطاع، كما بين هنا أن عذاب أهل النار في النار دائمًا مردود إلىٰ مشيئته، وأنه بعَدْله وحكمته عذّبهم؛

ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، كما قال: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وهنا طيّب القلوب وثبّت المقصود بقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾.

وقد جاء في «الصحيحين» [البخاري (٤٧٣٠، ومسلم (٢٨٤٩)]، وفي الصحيح أيضًا: «**فيقال لأهل الجنة: إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تصحّوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا**». اهـ

قلت: وما قاله ابن كثير مختصر كلام أهل التفسير وأرجحه، وهو الذي عليه كلام الصحابة وأكثر أهل العلم في هذه الآية وهذا الاستثناء.

ثم قال القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٦٩ وما بعدها):

«قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ وقد اختلف فيه علىٰ أقوال عشرة:

الأول: أنه استثناء من قوله: ﴿فَفِى ٱلنَّارِ﴾ [هود: ١٠٦) كأنه قال: إلا ما شاء ربك من تأخير قوم عن ذلك، وهذا قول رواه أبو نضرة عن أبي سعيد الخدري وجابر رضي الله عنهما، وإنّما لم يقل من شاء؛ لأن المراد العدد لا الأشخاص؛ كقوله: ﴿مَا طَابَ لَكُم﴾ [النساء: ٣].

الثاني: أن الاستثناء إنما هو للعصاة من المؤمنين في إخراجهم بعد مدّة من النار، وعلىٰ هذا يكون قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟﴾ عامًّا في الكفرة والعصاة من المسلمين، ويكون الاستثناء من ﴿خَٰلِدِينَ﴾؛ قاله قتادة والضحاك وغيرهم؛ وفي «الصحيح» من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**يدخل ناس جهنم حتىٰ إذا صاروا كالحممة أُخرجوا منها ودخلوا الجنة فيقال لهم: الجهنميون**» [وهو لفظ أحمد في «المسند» (٢٣٣٨٣)، وعند مسلم (١٨٢، ١٨٣)].

الثالث: أن الاستثناء من الزفير والشهيق، أي: لهم فيها زفير وشهيق إلا ما شاء ربك من العذاب الآخر الذي لم يذكر، وكذلك أهل الجنة من النعيم ما ذكر، فما لم يُكر، حكاه الأبياري.

الرابع: قال ابن مسعود: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ لا يموتون فيها ولا يخرجون منها ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ وهو يأمر النار فتأكلهم وتفنيهم، ثم يُجدّد خلقهم [قلت: قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

قلت [القرطبي]: وهذا قول خاص بالكافر، والاستثناء في الاكل وتجديد الخلق.

الخامس: أن ﴿إِلَّآ﴾ بمعنىٰ (سوىٰ) كما تقول في الكلام: ما معي رجل إلا زيد، ولي عليك ألفا درهم إلا الألف التي عليك.

قيل: والمعنىٰ: ما دامت السموات والأرض سوىٰ ما شاء ربك من الخلود.

السادس: أنه استثناء من الإخراج، وهو لا يريد أن يخرجهم منها، كما تقول في الكلام: أردت أن أفعل ذلك إلا أن أشاء غيره، وأنت مقيم علىٰ ذلك الفعل، فالمعنىٰ أنه لو شاء أن يخرجهم لأخرجهم، ولكن قد أعلمهم أنهم خالدون فيها، ذكر هذين القولين الزجّاج عن أهل اللغة، قال: ولأهل المعاني قولان آخران، فأحد القولين: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ من مقدار موقفهم علىٰ رأس قبورهم، وللمحاسبة، وقدر مكثهم في الدّنيا، والبرزخ، والوقوف للحساب.

والقول الآخر: وقوع الاستثناء في الزيادة علىٰ النعيم والعذاب، وتقديره: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ من زيادة النعيم لأهل

النعيم، وزيادة العذاب لأهل الجحيم.

قلت [القرطبي]: فالاستثناء في الزيادة من الخلود علىٰ مدّة كون السماء والأرض المعهودتيْن في الدنيا، واختاره الحكيم الترمذي أبو عبد اللَّه محمد بن علي؛ أي: خالدين فيها مقدار دوام السموات والأرض؛ وذلك مدة العالم، وللسماء والأرض وقت يتغيَّران فيه، وهو قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، فخلق اللَّه سبحانه الآدميين وعاملهم واشترىٰ منهم أنفسهم وأموالهم بالجنة، وعلىٰ ذلك بايعهم يوم الميثاق [**قلت**: وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، فمن وفّىٰ بذلك العهد فله الجنة، ومن ذهب برقنته يُخلد في النار بمقدار دوام السموات والأرض؛ فإنما دامتا للمعاملة؛ وكذلك أهل الجنّة خلود في الجنة بمقدار ذلك، فإذا تمّت هذه المعاملة وقع الجميع في مشيئة اللَّه، قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩] فيخلّد أهل الدارين بمقدار دوامهما، وهو حق الربوبيّة بذلك المقدار من العظمة، ثم أوجَبَ لهم الأبد في كلتا الدارين؛ لحقّ الأحديَّة، فمن لقّبه موحّدًا بقي في داره أبدًا، ومن لقيه مشركًا بأحديّته إلهًا بقي في السجن أبدًا، فأعلم اللَّه العباد مقدار الخلود، ثم قال: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ﴾ من زيادة المدة التي تعجز القلوب عن إدْراكها لأنه لا غاية لها؛ فبالاعتقاد دام خلودهم في الدارين أبدًا، وهذا السابع.

وقد قيل: إنّ ﴿إِلَّا﴾ بمعنىٰ (الواو)، قاله الفرَّاء وبعض أهل النظر وهو **الثامن**: والمعنىٰ: وما شاء ربّك من الزيادة في الخلود علىٰ مدة السموات والأرض في الدنيا، وقد قيل في قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [العنكبوت: ٤٦] أي: ولا الذين ظلموا، وقال الشاعر:

وكـــلُّ أخٍ مـــفـــارِقُـــهُ أخـــوه   لـعَـمْـر أبـيـك إلا الـفـرْقـدان

أي: والفرقدان.

- وقال أبو محمد مكيّ: وهذا قولٌ بعيد عند البصريين أن يكون (إلَّا) بمعنىٰ الواو.

وقيل: معناه كما شاء ربك؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢] أي: كما قد سلف وهو التاسع.

العاشر: وهو أن قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ إنما ذلك علىٰ طريق الاستثناء الذي ندب الشرع إلىٰ استعماله في كل كلام، فهو علىٰ حدّ قوله تعالىٰ: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٣٧] فهو استثناء في واجب، وهذا استثناء في حكم الشرط كذلك، كأنّه قال: إنْ شاء ربك، فليس يوصف الاستثناء بمتّصل ولا منقطع، ويؤيّده ويقوّيه قوله تعالىٰ: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]، ونحوه عن أبي عُبيد قال: تقدّمت عزيمة المشيئة من اللَّه تعالىٰ في خلود الفريقين في الدَّارين، فوقع لفظ الاستثناء، والعزيمة قد تقدّمت في الخلود، قال: وهذا مثل قوله تعالىٰ: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٣٧] وقد علم أنهم يدخلونه حتمًا، فلم يوجب الاستثناء في الموضعين خيارًا، إذْ المشيئة قد تقدّمت بالعزيمة في الخلود في الداريْن والدخول في المسجد الحرام، ونحوه عن الفرَّاء.

وقول -حادي عشر-: وهو أنّ الأشقياء هم السعداء، والسعداء هم الأشقياء لا غيرهم، والاستثناء في الموضعين راجع إليهم، وبيانه: أن (ما) بمعنىٰ (من) استثنىٰ اللَّه ﷻ من الداخلين في النار المخلدين فيها الذين يخرجون منها من أمة محمد ﷺ؛ بما معهم من الإيمان، واستثنىٰ من الداخلين في الجنة المخلدين فيها

يدخلون النار بذنوبهم قبل دخول الجنة ثم يخرجون منها إلىٰ الجنة، وهم الذين وقع عليهم الاستثناء الثاني، كأنه قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٦، ١٠٧] وهم خارجون منها من أمّة محمد ﷺ بإيمانهم وبشفاعة محمد ﷺ، فهم يدخلون النار يسمون الأشقياء، وبدخولهم الجنة يسمّون سعداء، كما روىٰ الضحاك عن ابن عباس إذْ قال: الذين سعدوا شَقُوا بدخول النار ثم سَعِدوا بالخروج منها ودخولهم الجنة». اهـ

قلت: هذا تحقيق علميّ رصين وتقصٍّ عالٍ في ورود الأقوال في هذه المسألة المشكلة، وقد أوردت الراجح في المسألة عند ابن كثير وقول عامة الصحابة في معنىٰ الآيات وإنما أوردت الأقوال الكلية في معنىٰ الآيات لبيان أوجهها ودليلها وعللها ليستقيم لك المعنىٰ المراد فيها، ولله الحمد والمِنَّة.

ثم اعلم أن تحقيق المسائل الشرعية يُتيح لطالب العالم الوقوف علىٰ أوجه الاستخراج والاستنباط والبَتّ بالظفر بالراجح من المرجوح بما يتحقق به التكلم في دين الله، سواء بسواء علىٰ كل أصعدة العلوم الشرعية؛ لأن هذه الطرق هي الموجّهة إلىٰ المطلوب الكليّ في معرفة الصواب والحق في مسائل الديانة، وذلك من خلال الوعي بآلية منظومة القواعد الأصولية الكلية التي هي المساعد الأم في إدراك والإلمام بمفاتيح العلوم، فعلىٰ كلّ من أراد أن يلتزم الطلب أن يحقق كل مسألة من مسائل الشريعة مفردة حتىٰ يتم له الإحاطة بأدلتها، ودلالاتها، وعللها، وشروطها، وأسبابها، وموانعها، ولوازمها، ومقتضياتها، وذلك بالمباشرة بتحقيق هذه المسائل، تحقيقًا متقصيًا، يعني: الاجتهاد والجد والنصب والقوة بشروطه من معرفة أدلة الأحكام وشرحها والقدرة علىٰ دفع التعارض بين الأدلة، وما ذكرته قبل ذلك من قواعد وأصول الفقه.

فها أنت ترىٰ كيف تدخل قواعد أصول الفقه في تفسير كتاب اللَّه من الاستثناء والعموم والخصوص، والمجمل والمبين من اختيار الآية التي تزيل الإجمال بآية أخرىٰ مبيّنة، أو بمعرفة الناسخ من المنسوخ، والمحكم من المتشابه وغير ذلك من القواعد، وهذا عام في كل العلوم، لا يقتصر علىٰ علم دون علم، وكلما تمكّن الطالب من الحيازة علىٰ الكمّ الأكبر من هذه القواعد، كان مما يُشار إليه بالبنان، واللَّه المستعان وعليه التكلان.

وصلىٰ اللَّه وسلم علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

بلّغه

الباحث الشرعي الدكتور: عيد بن أبي السعود الكيَّال

دكتوراه من كلية الشريعة الإسلامية

جامعة الأزهر بالقاهرة